الاستعارة في المنظوريْن التداوليّ والعرفانيّ

المنجي القلفاط
جامعة منّوبة، تونس
كليّة الآداب والفنون والإنسانيّات

موجز البحث

شغلت الاستعارة أذهان المفكّرين على اختلاف مشاربهم وعصورهم فتعدّدت المقاربات إلى حدّ بعيد. وقد كان للسانيّات التداوليّة والعرفانيّة فضل كبير في تطوير هذا المبحث. فقد قارب التداوليّون الاستعارة من زاوية صلتها بالمقام وبطرفي الخطاب ونبّه "سيرل" في هذا السياق إلى أنّ الحديث عن وجود استعارة داخل خطاب ما لا يصحّ إلاّ في ضوء هذين المعطيين، فلا وجود بالتالي لاستعارة بمعزل عن سياق التلفّظ، بل إنّ هذا السياق بما يشتمل عليه من معطيات يغيّر فهمنا لهذه الظاهرة التي ليست هي بأيّة حال من الأحوال معطى جاهزا. وقد كان للمباحث العرفانيّة كبير الدور في تجديد التعامل مع الاستعارة إذ ألحّ روّادها على أنّ هذه الظاهرة ليست خاصّيّة من خاصيّات الخطاب الأدبيّ فحسب، بل هي متجذّرة في أذهاننا وتجاربنا الحياتيّة والثقافيّة، وهي نتاج تصوّرات حاصلة في الفكر تنظّم نسقيّا خطابنا الاستعاريّ وفق خطاطات معيّنة تعكس قدرة الذهن على المزج بين مجالات تصوّريّة مختلفة.

الكلمات المفاتيح : استعارة، المستوى القاعديّ، المستوى الفرعيّ أو الأدنى، المستوى الأعلى، المزج، المجال المصدر، الطراز، المجال الهدف، العرفانيّة، خطاطة الصورة، التداوليّة، الإسقاط.

Résumé

La métaphore est un phénomène linguistique qui est devenu un centre d'intérêt pour les chercheurs depuis l'époque grecque. Mais, grâce aux deux approches pragmatique et cognitive, qu'il a connu une évolution remarquable. La première approche dite pragmatique a insisté sur le rôle du contexte dans la fondation et l'interprétation de l'énoncé métaphorique et notamment le rôle du locuteur et de l'auditeur. C'est Searle, l'un des fondateurs de la pragmatique, qui soutient que métaphore n'a pas de valeur hors de son contexte. Dans le même sillon, l'approche cognitive insiste sur l'aspect quotidien et concret de la métaphore. En effet ce phénomène de langage n'est pas lié au discours littéraire seulement, mais il est aussi présent dans le langage quotidien et dans nos expériences vitales. La métaphore selon cette approche est fondue sur une conceptualisation mentale.

تمهيد

لم تحظ ظاهرة من ظواهر اللغة بحظّ من الاهتمام في البحوث الغربيّة كما حظيت به الاستعارة. فزمانيّا، مثّلت هذه الظاهرة محور اهتمام امتدّ على عصور متباعدة انطلاقا من العصر اليونانيّ إلى اليوم. ومعرفيّا، انشغل بهذا المبحث الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع والأدب واللسانيّات. وقد مثّل المنظوران التداوليّ والعرفانيّ مرحلة حاسمة في تطوّر الطرح الاستعاريّ.

1. الاستعارة في المنظور التداوليّ عند "سيرل"

ذهب "سيرل "إلى أنّ تأسيس نظريّة في الاستعارة يجب أن ينطلق من البحث في طرفي الخطاب أي الباثّ والمتقبّل وتحديدا المتحدّث والسامع.

"فنظريّة الاستعارة تتمحور حول كيفيّة فهم السامع للتلفّظ الاستعاريّ للمتحدّث"[1]

ومن ثمّ، فإنّ نشأة الاستعارة ليست رهينة الباثّ فحسب، بل هي قائمة على علاقة نظاميّة بين الطرفين، فهي خاضعة لعقد ضمنيّ بينهما. وقد حدّد "سيرل" شروط صحّة الاستعارة بناء على خلفيّة الادّعاء أو الزعم، وهو أمر سبق إليه الجرجاني؛ وسنتوقف على ذلك لاحقا. ذاك أنّ"سيرل" أقرّ بضرورة أن يستند هذا الادّعاء إلى أسس "**مشتركة بين طرفي الخطاب أي المتحدّث والسامع**"[2]. ولقد وجّه هذا الباحث سهام نقده إلى النّظريّات التي سبقته، ورأى أنّها تنحصر في نظريّتين كبيرتين، هما نظريّة المشابهة[3] ونظريّة التفاعل[4].

من عيوب الأولى أنّها خلطت بين ما هو جزء من المعنى الحقيقيّ اللفظيّ وبين ما هو مستنبط مؤوّل حسب السياق. وعاب "سيرل "على هذه النظريّة حصرها الاستعارة في علاقة المشابهة، والحال أنّ كثيرا من الاستعارات لا تفهم إلاّ في سياق مخصوص، ممّا يدلّ على أنّ مبدأ المشابهة وحده غير كاف لمقاربة الاستعارة[5]. كما أنّ المشابهة نفسها هي حصيلة تأوّل في أحيان كثيرة؛ فلا نتبيّن بالتالي أوجه الشبه التي يرمي إليها المتحدّث.

---

[1] Searl, Sens et éxpression :Paris .éd.Minuit1982 P 123

[2] Ibid : P 126

[3] نظريّة المشابهة هي المقاربات البلاغيّة التي تجعل الاستعارة قائمة على علاقة المشابهة فحسب.

[4] أسّس معالمها "ماكس بلاك"Max Black "و" رتشاردز" Richards"ومضمونها أنّ الاستعارة هي حصيلة التفاعل بين "البؤرة والإطار" أو بين"المحتوى والناقل" أي المستعار والمستعار له.

[5] Sens et éxpression: P 141

أمّا نقده لنظريّة التفاعل، فقد انصبّ على مبدإ التفاعل بين البؤرة والإطار أو المحتوى والناقل. وقد رأى "سيرل" أنّ هذه النظريّة أهملت بتركيزها على هذا المبدإ دور السياق التلفـظيّ في تشكيل الاستعارة. فلا يمكن فهم استعارات المتنبّي على سبيل المثال بمعزل عن سياقاتها التلفظيّة. ومن الأمثلة التي يقدّمها سيرل، لتوضيح صلة الاستعارة بالسياق، المثال **"لقد بدأ الحرّ يشتدّ هنا"**. فهذا القول يحتمل التأويلات التالية بحسب السياق التلفظيّ:

- السخرية، وذلك بقصد خلاف ذلك أي "البرد شديد"؛
- احتدام الصراع أو الجدال؛
- افتح الباب **"دلالة الاقتضاء بقصد عمل لغويّ غير مباشر"**[1].

كذلك، عارض "سيرل" فكرة النقل فبيّن أنّ الحقيقة هي أنّ المتحدّث أراد إبراز معنى على آخر، ورأى أنّ مردّ الحديث عن النقل هو الخلط بين معنى الجملة ومعنى المتكلّم، أي المعنى المراد إبرازه. وقد خلص هذا الباحث إلى تحديد شروط فهم الاستعارة. فعلاوة على المعرفة اللغويّة، وضرورة توفّر الوعي بظروف التلفّظ المشتركة بين المتحدّث والسامع، يجب أن يضع المتقبّل نصب عينيه جملة من المبادئ أهمّها معرفة ما إذا كان الخطاب يقتضي تأويلا استعاريّا، ومحاولة التعرّف على نقاط الاشتراك بين المستعار له والمستعار. وتمثّل هذه المبادئ المنهج الذي يجب توخّيه لفهم الاستعارة[2]؛ وهو فهم يمرّ عبر مراحل ثلاث. أولاها أن يتّبع المتقبّل سياسة أو استراتيجيّة تمكّنه من معرفة ما إذا كان عليه البحث عن معنى استعاريّ في الملفوظ. وإذا تبيّن له وجوب ذلك، مرّ إلى المرحلة الثانية المتمثّلة في توخّي تلك المبادئ في التأويل ليخلص إلى المرحلة الثالثة؛ وتتلخّص في حصر ميدان المعنى المجازيّ لفهم المعنى المقصود.

تناولت هذه المقاربة أيضا مسألة الصدق والكذب في الاستعارة. فبيّن سيرل أنّ الكذب لا يتعدّى الجانب السطحيّ الحرفيّ من الملفوظ، وأشار إلى أنّ توفّر بعض الصدق في الملفوظ الاستعاريّ كاف لتكون الاستعارة صادقة[3]. ويقدّم مثالا على ذلك قول الأمّ لابنها الصغير "غرفتك زريبة خنزير"؛ فإنّ في الملفوظ جانبا من الصحّة، هو أنّ الغرفة قذرة فوضويّة نتنة الرائحة. ويقترح "سيرل" طريقة

---

[1] Ibid :p127
[2] Ibid :P 156
[3] Ibid :p156

للتمييز بين الصدق والكذب في الاستعارة، هي إدخال النفي على الجملة المفترض أن تكون كاذبة؛ فنقول "ليست غرفتك زريبة خنزير اليوم". فالملاحظ أنّ الجملة حافظت على الاستعارة، ممّا يؤكّد أنّ مقولة الكذب ليست أمرا جوهريّا في الاستعارة؛ وإلاّ لما حافظت الجملة على البعد الاستعاريّ في حال النفي كذلك، ما دام نفي الكذب في المنطق يعني الصدق، والعكس بالعكس.

ولعلّ أبرز ما تؤاخذ عليه هذه المقاربة هو عدم ربط الاستعارة بمركز ثقل المبحث التداولي؛ وهو الأعمال اللغويّة. ذاك أنّ الاستعارة يمكن أن تتّخذ دلالات متنوّعة مختلفة، إن قليلا أو كثيرا، باقترانها بأحد هذه الأعمال كالنفي والاستفهام وغيرهما.

4. 2- الاستعارة في المنظور العرفانيّ

2-1 الاستعارة ظاهرة ثقافيّة تجريبيّة

تعدّ كتابات "لايكوف "Lakoff" وجونسون "Johnson" مؤسّسة لنظريّة تعتبر الاستعارة نتاجا ثقافيّا شديد الصلة بتجارب البشر اليوميّة، وقد وجّه "لايكوف وجونسون" في كتابهما "الاستعارات التي نحيا بها" انتقادات كثيرة للنظريّات الكلاسيكيّة للاستعارة وحدّدا مواطن الخلل فيها. وأهمّ هذه المواطن:

أ. اعتبار الاستعارة مادّة لغويّة لفظيّة لا صلة لها بالفكر والأنشطة البشريّة.

ب. اعتبار اللغة الاستعاريّة غريبة عن اللغة العاديّة.

ج. التعابير الاستعاريّة اليوميّة هي استعارات ميّتة.

د. اللغة الاستعاريّة متغيّرة؛ ومن ثمّ يصعب اعتمادها في كلّ الخطابات.

ه. اعتبار الاستعارة حلية أو زخرفا.

و. اختزال الاستعارة في نظريّة الصّور المجازيّة.[1]

وقد سعى هذان الباحثان في المقابل إلى بناء نظريّة جديدة على أنقاض النظريّات الكلاسيكيّة. فالاستعارة وفق هذا المنظور الجديد "**حاضرة في جميع مجالات حياتنا اليوميّة، وبالتالي فهي ملازمة لخطاباتنا اليوميّة أيضا**"[2]. لكن ما الذي

---

[1] أنظر : لايكوف وجونسون: الاستعارات التي نحيا بها. تعريب عبد المجيد جحفة ط 1 دار توبقال. الدار البيضاء 1996– ص 21

[2] المرجع السابق: ص 119

يجعلنا لا نتفطّن لوجودها؟ يرى صاحبا هذه النظريّة أنّ ترسّخ هذه التعابير الاستعاريّة في خطاباتنا اليوميّة جعلها تقترب من الخطاب العاديّ، فلا نتفطّن لوجودها. ولكن كيف تتّصل الاستعارة بالفكر؟

يتّضح من آراء "لايكوف" و"جونسون" أنّ الحديث عن الاستعارة هو حديث عن تصوّر استعاريّ أو استعارة تصوّرية تتشكّل عبر تقاطع مجالات مختلفة في فكرنا. فعلى سبيل المثال، إذا قلنا هو في قمّة النشاط، فإنّ التصوّر الذي يحكم هذه الاستعارة هو "**الأكثر والأفضل يكون الأعلى**". فجهازنا الحسّي يتمثّل تجربة عموديّة قوامها "**الأكثر فوق والأقلّ تحت**" (**تهاوى من هول الفاجعة**). إنّ ربط الاستعارة بالنشاط الذهنيّ جعل مبحث الاستعارة في المنظور العرفانيّ يتوسّل بعلم النفس؛ فاستنتج "لايكوف وجونسون" وجود استعارات لا واعية هي نتاج اليد الخفيّة للذهن اللاّواعي.[1] ولقد صنّف أصحاب هذه النظريّة الاستعارة تصنيفات جديدة متعدّدة.

تصنيفات حسب طبيعة النسق التصوّري

توجد استعارات اتّجاهيّة. ومثال ذلك قولنا "سقط في الفخّ"، واستعارات أنطولوجيّة كاستعارات الكيان والمادّة كما هو الحال في قولنا عن الذهن "إنّه آلة". واستعارات بنيويّة. وكلّ صنف من هذه الاستعارات ليس اعتباطيّا بل له امتداد في تجاربنا اليوميّة والثقافيّة. ففي المثال "سقط في الفخّ" ،ترتبط الاستعارة بنسق تصوّريّ وثقافيّ معيّن يجعل كلّ ما هو سيّء في الأسفل ويجعل الأعلى رمزا للأفضل.

تصنيفات حسب مجال الاستعمال

ثمّة استعارات وضعيّة قاعديّة؛ وهي التي تحضر في الخطابات اليوميّة. وكثيرا ما ركّزت العلوم العرفانيّة على هذا الصنف لفهم آليّات اشتغال الفكر. وهناك أيضا استعارات شعريّة أو جديدة؛ وهي الاستعارات الإبداعيّة. لكن ما الفرق بين الصنفين؟ وما هي الحدود الفاصلة بينهما؟

رأى "لايكوف وجونسون" أنّ "الاستعارات الجديدة ترتبط بتجاربنا مثل الاستعارات الوضعيّة القاعديّة تماما. وهي تتأسّس على بنية منجسمة. ويتمّ خلق استعارات شعريّة جديدة بخلق علاقات جديدة وتصاميم مستحدثة. وتتميّز

---

[1] Lakoff and Johnson : Philosophy in the flesh New York Basic Books., 1999. P 14

الاستعارات الشعريّة بكونها واعية على خلاف الاستعارات الوضعيّة القاعديّة التي هي نتاج اللاوعي البشريّ.

والاستعارات الشعريّة كذلك هي توسعة وتطوير للاستعارات الوضعيّة. ومن مميّزات الشعر توظيف أكثر من استعارة في سياق واحد بشكل متزامن. فالاستعارة الشعريّة إذن مادّتها الخام الاستعارة الوضعيّة، ثمّ تدخل عليها تغييرات كالتوسعة والخيال، فتتكوّن استعارات مركّبة، والتركيب من أهمّ خصائص الاستعارة الشعريّة[1]. وفي هذا السياق يتحدّث لايكوف و تورنر عن استعارة قاعديّة تكون إنتاجيّة أو مولّدة لاستعارات جديدة. ولكن كيف تنشأ الاستعارات أصلا؟

يتوسّل لايكوف وتورنر بالنظريّة الإدماجيّة وهي سليلة علم النفس انطلاقا من فرضيّة غرادي "Grady" التي مفادها أنّ الاستعارات المركّبة هي مجموع استعارات جزئيّة، وتتكوّن من أجزاء استعاريّة ذرّية تسمّى "استعارات أوليّة أو قاعديّة". وكلّ استعارة أوّلية لها بنية دنيا تظهر آليّا بشكل طبيعي لا واع عبر التجارب اليوميّة من خلال مبدإ المزج "Conflation". فالاستعارة عند هذين الباحثين فطريّة، بينما نرى أنّ نشأة الاستعارة تكون عبر مبدإ الاكتساب تماما، مثلما يكتسب الطفل اللغة. ولكن ما المقصود تحديدا بالاستعارة الأوليّة أو القاعديّة؟

لنتأمّل على سبيل المثال في القول "الجدال حرب". فهذا التصوّر هو استعارة مركّبة في هذا المنظور، لأنّها تتضمّن استعارات صغرى أو أوّليّة كقولنا "هاجم فكرته"، "تسلّح بالحجج". والاستعارة الأوّليّة هي جزء من اللاوعي وهي تكتسب آليّا وبشكل لا واع[2] . لكن كيف تنشأ العلاقة بين طرفي الاستعارة؟

تقوم نظريّة لايكوف وجونسون وتورنر على مبدإ أساسيّ في هذا الإطارK هو مبدأ الإسقاط/ فقد بيّنوا أنّ الاستعارة تقوم على إسقاط المجال المصدر على المجال الهدف، أي المستعار على المستعار له، ويقصد بالمجال المصدر المستعار أو المشبّه به في التقاليد البلاغيّة، والمجال الهدف هو المستعار له. فعلى سبيل المثال في استعارة "الحرب للجدال" يكون الجدال هو المجال الهدف في حين تمثّل الحرب المجال المصدر.

---

[1] Lakoff and Turner, More than cool reason : Chicago- London University of Chicago press 1988 P 70-71

[2] Ibid : P 49

وفي هذا السياق يتمّ اللّجوء مرّة أخرى إلى النظريّة الإدماجيّة التي تعتمد مبدأ المزج بين المجالين؛ ممّا يخلق ترابطات متقاطعة المجال، كما هو الشأن في التقاطع بين مجال الحرب ومجال الجدال في قولنا مثلا "هاجم فكرته، " دحض موقفه"، "وجّه إليه سهام النقد" رغم ما يبدو بين المجالين من تباعد. إنّ مبدأ الإسقاط هذا هو المعيار الأساسيّ للتمييز بين الاستعارة والاشتقاق أو التفريع المقوليّ، ففي هذا المثال لا وجود لمجالين مختلفين، بل إنّ هذا من ذاك.

ولقد طوّر "فوكونيي "Fauconnier" و تورنر "Turner" نظريّة المزج التصوّريّ الذي تقوم عليه الاستعارة التي يتقاطع فيها مجالان. وقد رأى لايكوف وجونسون أنّ هذا المزج أو التداخل يمثّل قاعدة لدراسة الاستعارات التصوّريّة، وتختزل نظريّة هذين الباحثين في أنّ الاستعارة التصوّريّة تمرّ بمرحلتين: مرحلة المزج أو التداخل ومرحلة التمييز.[1]

وقد نبّه العرفانيّون إلى أنّ المزج هو ملكة لا واعية بالأساس كسائر الملكات الذهنيّة، "القياس مثلا". ففي قولنا "إنّه ينفخ في رماد" أو "يزرع سبخة" يقوم المزج على تداخل فضاءين ذهنيّين هما فضاء النار والرماد والنفخ في المثال الأوّل، والزراعة والسبخة في المثال الثاني، أي المستعار من جهة، وبين فضاء السعي العبثيّ الذي لا طائل من ورائه من جهة أخرى. كما ينشأ فضاء ذهنيّ مزيج، هو حصيلة التداخل بين الفضاءين.

وقد رأى لاكوف وجونسون أنّه لابدّ من فهم المجال المصدر لفهم المجال الهدف. ولا شكّ أنّ هذا الفهم يتطلّب ثقافة من المتقبّل لتفكيك الاستعارة وفهمها. كما لاحظ لايكوف أنّ قوّة الاستعارة مستمدّة من مفهوم الإسقاط. ولكن، هل يكون الإسقاط كليّا؟

في هذا الإطار تقحم هذه النظريّة مفهوما أساسيّا هو التبئير "Focalisation" أو التنشيط، فقد رأى أصحابها أنّ الاستعارة تبئّر أو تنشّط بعض السمات الدلاليّة دون أخرى تكون هامّة في خدمة الاستعارة، وتهمل عناصر ثانويّة لا تخدم مقصد الاستعارة. وآية ذلك أنّنا، إذا اعتبرنا الجدال حربا، فإنّنا نركز على مبدإ الصراع - وهو البؤرة - في حين نهمل ما في الجدال من تعاون حيث يتبرّع المخاطب بوقته وجهده لإقناعنا. وفي استعارة الأسد للإنسان نركز على صفة الشجاعة دون غيرها.

[1] Philosophy in the flesh: P 49

ولقد لقيت فكرة الإسقاط حظّها من النقد. فقد رأت "كونتّا" " Mirella Conenna" أنّ هذا المبدأ قد يكون ملتبسا إذا تعلّق الأمر باستعارات معقّدة يصعب معها تبيّن العلاقة بين المجالين. وتقترح هذه الباحثة في المقابل نظريّة الإدماج التصوّري، كما صاغها "فوكونيي وتورنر" وسيلة لتجاوز العقبات التي يفرضها إسقاط كلّـي لمجال على آخر.[1] ويقوم هذا الإدماج على مقاربة أكثر حركيّة تقوم على تعديل المقتضيات داخل شبكة من العلاقات لفهم الاستعارة المرشّحة المعقّدة. ولئن تحدّثت نظريّة لايكوف وجونسون وتورنر عن مجال مصدر ومجال هدف، فقد تحدّث فوكوني وتورنر عن فضاءين ذهنيين وعن جنس ثالث عام (générique) رابط بين المجالين، هو حصيلة التقاء تصوّرين متداخلين، وعن رابع هو فضاء إدماجيّ يضمّ العناصر المشتركة بين طرفي الاستعارة.

ولئن كان الإسقاط عند لاكوف وجونسون تصوّريّا ثابتا، فهو عند فوكوني متنقّل بين فضاءين ذهنيين . كما رأت كونتّا أنّ حصر الاستعارة في المجال المصدر والمجال الهدف يبقى غير كاف لفهم "**المشهد المعقّد والمركّب في حين أنّ الإسقاطات الفضائيّة المتنقّلة ستمكّننا من ذلك الفهم**"[2].

إنّ فكرة الإسقاط تبدو لنا غير دقيقة في فهم العلاقة بين طرفي الاستعارة أو المجالين التصوّريين. ذاك أنّ العلاقة بينهما تبدو في نظرنا علاقة تراكبيّة لا إسقاطيّة. فالإسقاط قد يكون دقيقا في حالة التشبيه لأنّه يضمن مسافة بين الطرفين. أمّا في حال الاستعارة، فهذه المسافة تزول، ويتراكب ذانك الطرفان.

2-2 الاستعارة بناء نسقيّ

ليس هذا المنظور إلاّ فرعا عن النظريّة العرفانيّة التجريبيّة. فقد رأى أصحاب هذه المقاربة، ونعني خاصّة لايكوف وجونسون أنّ الاستعارة لا تتكوّن من وحدات معزولة واعتباطيّة، و ليست مفكّكة، بل تتأسّس على ترابطات نسقيّة داخل تجربتنا[3] .

ففي استعارة "الجدال حرب" نسعى إلى فهم الجدال من خلال نسق تصوّريّ معروف، لأنّ الحرب تصوّر متجذّر في تجاربنا وثقافتنا. وممّا يؤكّد أنّ الاستعارة تتشكّل نسقيّا، أنّنا إذا استعرنا "الأعلى" للأفضل، فإنّ جلّ الاستعارات المنضوية

[1] Langue francaise n° 134 Mai 2002 P 109
[2] Ibid : P 114
[3] الاستعارات التي نحيا بها: ص 81

تحت هذا التصوّر يجب أن تخضع لنسقه. فنقول على سبيل المثال "هو في قمّة السعادة" أو "في أعلى درجات النشاط". ولا نجد استعارة تخرق هذا النسق وتستند إلى نقيضه فيكون "الأفضل في الأسفل". وإذا ما تأمّلنا الاستعارات الأوليّة التالية والتي تشكل استعارة مركّبة "الجدال حرب"، "دحض فكرته"، "هاجم حجّته"، "انتصر للأطروحة"، ألفينا كلّ واحدة من هذه الاستعارات مرتبطة بالأخرى نسقيّا من خلال علاقات جامعة بينها بما أنّها تساهم مجتمعة في تشكيل مفهوم الحرب. فالاقتضاء أساس جامع لهذه الاستعارات التي تقوم على تصوّر مشترك بينها. وهنا، يحيل لايكوف وجونسون على الاختلاف الجوهريّ بين عملهما وعمل المعجمين قائليْن:

"على هذا الأساس نفهم الفرق الجوهريّ بين عملنا وعمل واضعي المعاجم. فمن الغريب أن نجد أنّ الجنون والسفر من معاني الحبّ، ولا نجد ذلك في المعاجم إذا قلنا مثلا: "رحلة الحبّ صعبة" أو "جنّ بحبّه""[1].

فأصحاب المعجم لا ينشغلون بالسياق واختلاف المدلولات للفظ الواحد وفقه على خلاف عمل هذه النظريّة.

كذلك عالج لاكوف وجونسون علاقة الاستعارة بالحقيقة والصدق، فرأيا أنّ

"فهم الصدق من خلال الإسقاط الاستعاريّ لا يختلف من حيث الجوهر عن فهمه من خلال الإسقاط غير الاستعاريّ"[2].

والفرق الوحيد أنّنا في حالة الاستعارة نفهم شيئا من خلال شيء آخر ويكون الشيئان مختلفين على خلاف الخطاب العاديّ. وفي ذلك ردّ على من يرى أنّ الاستعارة لا تتناسب مع الحقيقة، وأنّها وهم وزيف من خلال تأكيدهم على تجذّر الاستعارة في ثقافتنا، كما أنّ مقولة الصدق نسبيّة، فلا وجود، حسب هذين الباحثين، لا وجود لصدق موضوعيّ مطلق تماما.[3] وبذلك ردّت هذه النظريّة على أصحاب النزعة الموضوعيّة الذين يرون أنّ الاستعارة واللغة المجازيّة عموما يجب تجنّبها لأنّها ليست دقيقة.

وفي إطار النظريّة النسقيّة هذه ينتهي صاحبا هذه المقاربة إلى بنية نسقيّة سلّميّة في بناء الاستعارة؛ فتحدّثا عن استعارات بسيطة أو أوّليّة وعن استعارات مركّبة تشكل مجتمعة السلسلة الاستعاريّة الكبرى.

---

[1] المرجع السابق: ص 181

[2] نفسه: ص 171

[3] نفسه: ص 181

وفي هذا السياق يتحدّث لايكوف وجونسون عن بناء عنقوديّ للاستعارات. ذاك أنّ الاستعارات الأوّليّة أو القاعديّة تشكّل الاستعارات المركّبة التي يمكن أن تجتمع في نصّ واحد وتقدّم فهما مغايرا لما تقدّمه الاستعارة المفردة، ويطلق على هذه القراءة القراءة الكلّيّة التي تهتمّ بالبنية الاستعاريّة الكبرى.[1]

وقد أسندت هذه النظريّة العرفانيّة إلى النزعة الذاتيّة الرومنطقيّة خاصّة. وهي تعتبر أنّ الفنّ والشعر يتعاليان على الموضوعيّة والعقلانيّة وينشدان حقيقة أرقى هي حقيقة المشاعر والحدس.

2- 3 المقاربة الطرازيّة للاستعارة

لا تتخلّى هذه النظريّة، كما تجسّدت في كتاب "النساء والنّار والأشياء الخطرة" خاصّة[2] للايكوف عن مفهوم الإسقاط الذي يتمّ بين منوالين. والنظريّة الطرازيّة للاستعارة نظريّة جديدة للمقولات التصوّريّة، وقد عرّف لايكوف الطراز بأنّه المقولة التي تعبّر عن الشيء أكثر من غيرها[3]. كما عرّفه كلايبر Kleiber بقوله **"هو المثال الذي يحمل السمات البارزة للمقولة"**[4]. فالعصفور مثلا يعبّر عن جنس الطّيور أكثر ممّا يعبّر عنه النّعام نظرا إلى كثرة ارتباطه بتجاربنا الحياتيّة والإبداعيّة. على أنّ العُقاب أو النسر يمكن أن ينهضا بوظيفة الطّراز نفسه إذا كنّا في ثقافة يحظى بها هذان الطائران بمكانة أرفع من العصفور. وكذلك يعبّر البحر عن الماء أكثر ممّا يعبّر عنه الجدول، وقس على ذلك ما تشاء. والمقولات منها ما هو لغويّ كمقولة الجنس ومنها ما هو غير لغويّ. وتكمن أهمّيّة المقولة في كونها تنظّم المعارف داخل الذهن؛ فتيسّر بذلك تشكّل المعجم الذهنيّ لأنّ المقولة المشكّلة للطّراز (prototype) تحمل سمة التمثيل (لجنس معيّن أو لشيء آخر) وسمة الأفضليّة. ومن ثمّ:

"يمكن أن نعتبر نظريّة الطراز قائمة على مبدأين متلازمين: مبدإ الإدراك الحسّيّ (لأنّ الأطرزة تدرك بالحواسّ) من ناحية ومبدإ الاقتصاد من ناحية أخرى لأنّ المقولة تزوّدنا بأكثر ما يمكن من المعلومات بأقلّ جهد ذهنيّ ممكن"[5].

---

[1] Lakoff and Johnson : More Than cool reason. P 146

[2] « Women fire and dangerous things»

[3] Lakoff (G.):Women Fire and dangerous things Chicogo. University of Chicago press 1987 P 57

[4] Sémantique du prototype.Paris.P.U.F.1990 p63

[5] عبد الله صولة: المقولة في نظريّة الطّراز الأصليّة. حوليّات الجامعة التونسيّة عدد 46 سنة 2002 . ص 374

ولقد بيّن لايكوف مضمون هذه النظريّة ومحور عملها قائلا:

"إنّنا ننظّم معرفتنا بواسطة بنى تسمّى المناويل العرفانيّة المؤمثلة وتمثّل التصاميم الاستعاريّة شكلا من أشكال هذه البنى أو هذه المناويل أو الأطرزة" [1].

وهذه المناويل العرفانيّة أو الأطرزة يمكن أن تمتزج لتشكّل بنية عنقوديّة. والمثال على ذلك النماذج العرفانيّة المركّبة أو العنقوديّة للفظ "الأمّ" الذي يمكن أن يوظّف في استعارات كثيرة: أمّ الرأس، أمّ القرى، أمّ الكتاب، أمّ القضايا ..." وكذا الشأن بالنسبة إلى طراز الرّأس حيث يشكّل مجموعة من الصّور كقولنا "رأس القوم" أو "الرّأس المدبّر".

وتؤكّد هذه المقاربة على أنّ هذه المناويل العنقوديّة ليست مغلقة بل يمكن أن تتنوّع وتتعقّد أكثر بتطوّر الحياة العصريّة وما تفرضه من تصوّرات جديدة.[2] وما يميّز الطراز الاستعاريّ عن غيره من المجازات هو أنّ المناويل الاستعاريّة التي تشكّل الطّراز تكون مسقطة من منوال على آخر.

والإسقاط يكون جزئيّا متعلقا بعنصر داخل كلّ منوال أي المنوال المصدر والمنوال الهدف، ففي مثال: أمّ القضايا يتمّ إسقاط خاصيّة الأصل المولّد والمنتج على القضيّة الرئيسة الأصليّة.

وينقد صاحب هذه النظريّة المقولات الكلاسيكية التي يرى أصحابها أنّ الاستعارة لا يمكن أن تفسّر الظواهر والحال أنّ **"الكثير من تفكيرنا العقلانيّ يعتمد المناويل الاستعاريّة أو الأطرزة"**.[3]

وفي مثال "الغضب" يمكن أن نتصوّر هذه الظاهرة على أنّها "طراز" و"كتلة" وله سلّم يحدّد الكميّة "غضب شديد، غضب بسيط، والغضب لا يفهم إلاّ من خلال الاستعارات التي هي جزء أساسيّ من كلامنا. فنقول "جنّ جنونه" أو "حمي مرجله" أو "ثارت ثائرته" أو "زمجر"، ففي مثال "صبّ جام غضبه" يفهم الغضب على أنّه سائل وفي" حمي مرجله" يفهم على أنّه حرارة وكذلك في قولنا "استشاط غضبا".

والطّراز عند لايكوف وجونسون هو أفضل ممثّل للمقولة، فهو سلطة نموذجيّة لها. وهو القوّة الذهنيّة، وهو إلى ذلك الشرط الأوّل لنشأة الاستعارة في

[1] Women Fire and dangerous things P 68 .
[2] Ibid : P 113.
[3] Ibid : P 303.

المستوى القاعديّ (BASIC LEVEL). "فالأسد" على سبيل المثال لفظ ينتمي إلى هذا المستوى ويشكّل طرازا يستخدم في توليد الصّور من استعارة وتشبيه. وكذلك يمثّل الورد لفظا منتميا إلى المستوى نفسه ويوظّف باعتباره طرازا يسقط على كيان أو جزء من الكيان هو الخدّ أو الوجنة.

والمستوى القاعديّ يتشكّل فيه الطراز بطريقتين : طريقة أفقيّة وأخرى عموديّة. :والمقصود بالطراز العموديّ، المستويات الثلاثة التي حدّدها العرفانيّون للألفاظ وهي المستوى الأعلى كعبارة "حيوان" والمستوى القاعديّ كلفظ " أسد" والمستوى الفرعيّ أو الأدنى كلفظ "الضرغام" في علاقته بالأسد.

وعلى هذا النّحو أيضا يشكّل النّبات على سبيل المثال مستوى أعلى في الدلالة في حين تشكّل الزّهور مستوى قاعديّا وتشكّل في المقابل أنواع الزهور من نرجس وياسمين وفلّ وغيرها من ألفاظ المستوى الفرعيّ أو الأدنى .

ويعدّ المستوى القاعديّ الأكثر حضورا في خطاباتنا لأنّه الأسرع حضورا في أذهاننا، وهو المنظّم لجلّ معارفنا. كما أنّه المستوى الأقرب إلى اكتساب اللّغة عند الطّفل الذي يتعلّم مثلا لفظ الزّهرة قبل أن يتعلّم لفظ النّبات (المستوى الأعلى) أو النرجس (المستوى الفرعيّ أو الأدنى). ولعلّ ذلك عائد بالأساس إلى طبيعة ألفاظ هذا المستوى القاعديّ من حيث أنّه يمثّل درجة وسطى بين التعميم الذي ينقصه بعض الدقّة في تحديد موجود بعينه (المستوى الأعلى)، وبين التدقيق"العلميّ" المخصّص (المستوى الفرعيّ أو الأدنى).

أمّا الطراز الأفقيّ، فهو قائم على ما سميّ بـ "صلاحيّة الإشارة" وفاعليّتها أو ضعفها، فمقولات المستوى الأعلى لها صلاحيّة إشارة ضعيفة على خلاف مقولات المستوى القاعديّ لأنّه قائم على تعميم في الجنس دون تحديد أو تدقيق[1].

وتنتهي هذه النظريّة إلى النقطة التي يبدأ منها المعجميّون، فأصحاب المعجم تكون غايتهم القصوى تحديد معنى الألفاظ وهويّتها في حين ينطلق أصحاب هذه النظريّة من الألفاظ نفسها ويبحثون في سبل هجرتها داخل الكلام ومختلف المعاني التي تكسبها الخطاب.

ولقد نقدت"آنْ ربول" و" جاك موشلار" نظريّة الطراز هذه نقدا انصبّ على مفهوم "المشابهة العائليّة". فقد انطلق الباحثان من ملاحظة أنّ أصحاب النظريّة هذه

[1] يمكن العودة في هذه المسألة إلى مقال عبد الله صولة بعنوان "البلاغة العربيّة في ثوب عرفانيّ" ضمن كتاب" مفترق الكلمات" منشورات كليّة الآداب بسوسة. سوسة تونس 2008

لم يضبطوا لها حدودا صارمة دقيقة إذ يمكن للمرء أن يبرهن مثلا على أنّ الإنسان طائر أي أنّه ينتمي إلى عائلة الطيور كما ينتمي إليها النسر والعقاب والدوريّ باعتبار أنّ الإنسان له سمة مشتركة مع أفراد هذه العائلة ونعني الرجلين. (ننبّه إلى أنّ نظريّة الطراز لم تحدّد خاصيّة ضروريّة باستثناء سمة المشابهة وإن كانت سمة يتيمة). وبالتالي يمكن القول إنّ الإنسان طائر فتزول الحدود بين الأطرزة وتتداخل فتفقد شرعيّتها ومتانتها[1]، فتكون مقولة الطراز بالتالي متعارضة مع قاعدة الاختلاف الطبيعيّ بين الأجناس ولا سيّما بين جنس الطير وجنس البشر. وخلاصة موقف"ربول" أنّ مقولة الطراز لا تتّسم بالدقّة العلميّة الصارمة التي يقتضيها بناء نظريّة معرفيّة واضحة المعالم مادامت هذه المقولة تتغيّر وفق مقتضيات المتقبّل وغيرها، وآية ذلك أنّ التفاح على سبيل المثال يعدّ طرازا في بعض البلدان التي تمثّل فيها هذه الثمرة قطب الإنتاج، فتكون بالتالي هي الأكثر تمثيلا لمقولة الغلال، في حين يكون التمر في البلدان التي يحتلّ فيها هذا الثمر صدارة الإنتاج هو الطراز.

2- 4 الاستعارة وخطاطة الصّورة "مارك جونسن"أنموذجا

عرّف بعض العرفانيّين خطاطة الصورة بأنّها شبكة تصوّريّة ذهنيّة تنظّم أنشطتنا وتجاربنا الحياتيّة. وهذه الخطاطة ترسّخ نزعة العلوم العرفانيّة إلى ربط الأنشطة الذهنيّة بالتجارب الحياتيّة وجعلها مجسّدنة أو مجسّمة. ذاك أنّ الإنسان وفق هذا المنظور ينظّم رؤيته للعالم وفق خطاطة صورة (image- schéma). ويقدّم "جونسن" عدّة نماذج من الخطاطات الصُوَريّة الاستعاريّة أهمّها:

- **خطاطة الميزان.** إنّ جزءا من تجاربنا ومعارفنا ينظّم وفق منطق التوازن. فإذا ارتفعت حرارة الجسد أو انخفضت دون المعدّل اعتبرنا ذلك خرقا للتوازن. وقس على ذلك ارتفاع الأسعار أو تدنّيها؛
- **خطاطة المسار أو المسلك.** وتحضر في خطاباتنا بكثرة كأن نجعل أهدافنا وطموحاتنا نقطة النهاية التي نسعى إليها عبر وجهة وزمان؛
- **خطاطة التضمّن أو الاحتواء.** وتتجلّى في جملة من الاستعارات كأن نجعل الذهن وعاء الأفكار والقلب قبر الأسرار ونتحدّث عن جملة فارغة من الدلالة أو قصيدة حبلى بالمعاني.

[1] التداوليّة اليوم،ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمّد الشيباني، المنظمة العربيّة للترجمة،بيروت2003 ص 146- 147

إنّ هذه النماذج من الخطاطات إنّما تذكّرنا بالتصنيفات التي وضعها لايكوف وجونسن للاستعارات على النحو الذي توقفنا عنده سابقا. لكنّ خطاطة الصّورة هذه حمّالة لصنوف من الإشكال. لعلّ أبرزها أنّها تبقى صالحة للاستعارات البسيطة الواضحة المعالم. أمّا إذا تعلّق الأمر بأخرى متشعّبة، فإنّ مثل هذا التقسيم يضحي هشّا ومربكا. وحسبك شاهدا على ذلك المثالان: **"سقط مخطّطه في الماء"** و**"انفجر الطفل بالبكاء"**

ففي المثال الأوّل يمكن أن نظفر بأكثر من خطاطة للصّورة: أولاها **"خطاطة البنية أو الهيكل"** إذ السقوط من لوازم البناء، كما نظفر بـ**"خطاطة المسار أو الاتّجاه"** على حدّ تعبير لايكوف وجونسن لأنّ السقوط يتّخذ مسلك **"فوق- تحت"**.

وعلى هذا النحو، يمكن أن نظفر في المثال الثاني بأكثر من خطاطة: خطاطة الاحتواء إذ غدا الجسم وعاء "ينفجر من فرط الامتلاء" وخطاطة القوّة ما دام حدث الانفجار يحيل على الشدّة والحدّة والعنف.

5. الخاتمة

يلوح لنا من خلال هذا العرض أنّ المبحث الاستعاريّ مبحث ثريّ متجدّد واسع. وهو إلى ذلك مشغل فكريّ تعدّدت مسالك البحث فيه. ويمكن القول إنّ المنظورين العرفانيّ والتداوليّ يمثّلان مرحلة نضج في الطرح. وننبّه إلى أنّ الفصل بين المنظورين لا يعني عدم وجود سمات مشتركة بينهما؛ بل كثيرا ما تداخل المبحث التداوليّ بالعرفانيّ. فكان ذلك أمارة ثراء وانفتاح انعكس إيجابا على البحوث اللسانيّة على اختلاف فروعها. وإنّنا ننزّل هذا البحث في إطار التعريف بالمقاربات الحديثة في دراسة الصورة الشعريّة عموما، والاستعارة خصوصا بغية تجديد البحوث في الشعريّة العربيّة وفق هذه المقاربات المستحدثة.

المنجي القلفاط
جامعة منّوبة، تونس
كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات

قائمة المراجع

آن ربول وجاك موشلار، التداوليّة اليوم، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمّد الشيباني،المنظّمة العربيّة للترجمة، بيروت، 2003.
محمّد الصالح البوعمراني، بحوث نظريّة وتطبيقيّة في علم الدلالة العرفانيّ، مكتبة علاء الدين، صفاقس،2009
الأزهر الزنّاد، نظريّات لسانيّة عَرْفنيّة، ط1 الدار العربيّة للعلوم ودار محمّد علي الحامّي، ومنشورات الاختلاف، تونس 2010
عبد الله صولة، المَقْوَلة في نظريّة الطراز الأصليّة، حوليّات الجامعة التونسيّة، عدد46 السنة 2002.
جورج لايكوف ومارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد الحميد جحفة، دار توبقال، الدار البيضاء، 1996 .

Jhonson(M), The Body in the mind, University of Chicago Press.Chicago and London, 1987

Kleiber(G), Sémantique du prototype, P.U.F. , Paris, 1990

Lakoff(G) and Johnson(M), Philosophy in the fesh, New York, Basic books, 1999

Lakoff(G). Women fire and dangerous things.University of Chicago Press, Chicago, 1987

Moeschler(J) et Reboul(A),Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, Seuil, 1994

Searle(J), Sens et expressio, éd. Minuit, 1982